

إضاءات نقدية (فصلية محكمة)

السنة الثالثة - العدد الثاني عشر - شتاء ١٣٩٢هـ / كانون الأول ٢٠١٣م

ص ١٥١ - ١٣٥

دراسة لنشأة إحدى حكايات "مرزبان نامه" الاجتماعية؛ اختيار الأخ "أنموذجا"

رودابه شاه حسيني*

الملخص

إنَّ حكاية "هنبوى مع الضحاک" التي وردت في كتاب "مرزبان نامه" تحكى قصة امرأة بهذا الاسم كانت تعيش في عصر الضحاک. حيث تقع القرعة باسم ابنها وزوجها وأخيها في يوم واحد ليصبحوا طعاماً للحيتين اللتين كانتا على كتفى الضحاک بعد أن وقعوا في أسر حكومة الضحاک وبذلك حكم عليهم بالموت. وعندما تبالغ هنبوى في البكاء والوعويل يسمح لها الضحاک باختيار واحد من الثلاثة ليظل على قيد الحياة ويختار هنبوى أخاها من بين الثلاثة. إنَّ اختيار هنبوى لأخيها يثير العجب ولكن لا شك في أنَّ للأمر جذوراً تختلف عن النظام الاجتماعى وعن مفهوم القرابة المعاصرين ويجب أن نبحث عن تلك الجذور في المجتمعات البدائية التي كانت مبنية على أساس جنوسى يقرّ النظام الأمومى. تحاول هذه العجالة دراسة هذا المفهوم في تلك الحكاية.

المفردات الدليلية: هنبوى، اختيار الأخ، النظام الأمومى، الانتساب إلى الأم.

Roosha11@Yahoo.com

*. أستاذة مساعدة بجامعة بيام نور.

التنقيح والمراجعة اللغوية: د. عدنان أشكورى

تاريخ القبول: ١٣٩٢/٩/١٨

تاريخ الوصول: ١٣٩٢/٢/١٢

المقدمة

«يعتبر كتاب مرزبان نامه من تأليف مرزبان بن رستم بن شروين، كتاباً مليئاً بالنصائح والأمثال والحكايات على لسان الحيوانات وقد تم تأليفه على غرار كتاب كليلة ودمنة حيث وضع في أساسه باللهجة الطبرية القديمة في مازندران شمالي إيران وتم نقله بعد مضي قرنين تقريباً إلى اللغة الفارسية على يد شخصين هما سعدالدين وراوينسى ومحمد بن غازى الملطوي، والطريف في الأمر أن أحداً منهما لم يكن مطلعاً على عمل صاحبه وقد أضافا إليه الأبيات الشعرية والأمثال العربية والآيات القرآنية. إنَّ الكتاب الذى وصل إلينا هو كتاب مرزبان نامه الذى قام بترجمته وتهذيبه سعدالدين وراوينسى بين الأعوام (٦١٧-٦٢٢ق) حيث ظهرت الطبعة الأولى منه إلى النور عام (١٩٠٩م) بتصحيح ومقدمة محمد قزوینی فى لیڈن. وقد صدرت بعد ذلك عدة طبعات منه فى طهران.» (مصاحب، ٢٠٠٣م: ٢٧٤٢/٣) لقد وردت حكاية هنبوى مع الضحاک فى الباب الأول وترى الباحثة أنَّ الجذور الاجتماعية التى تنتمى إليها هذه الحكاية تختلف كلَّ الاختلاف عما هى عليه اليوم.

إنَّ هناك عوامل عديدة تلعب الدور فى خلق كل حضارة ونظام اجتماعى وبالتالى الخصوصيات الثقافية المميزة لذلك النظام ومن هذه العوامل، العوامل الجغرافية والجيولوجية والبيئية والاقتصادية وغير ذلك من العوامل. وكلَّما تغيرت عوامل خلق تلك الحضارة فإنَّ البنى التحتية لذلك النظام الاجتماعى وخصائصه الثقافية تتعرض للتغيير ويزول الكثير من العادات والمعتقدات من ذاكرة البشر تدريجياً غير أنَّ آثارها تبقى فى العادات والتقاليد التى يلتزم بها الناس ويتم نقل الأمثال والأساطير المرتبطة بها بشكل شفهي بين أجيال تلك الأمة دون أن يدرك الملتزمون بها أو من يسمعونها مغزى هذه القصص. إنَّ الأوامر والنواهي التى طواها النسيان ستظل مع الانسان فى رحلة حياته غير أنَّها تظهر هذه المرة فى قالب الرموز. إنَّ معرفة الأنظمة الاجتماعية وإعادة النظر فيها قد تستطيع أن تساعدنا على فك رموزها إلى حدِّ كبير بل إلى إظهار هذه الرموز.

الفرضية:

إنّ اختيار هنبوى لأخيها يدلّ على ترسبات النظام الأمومى و الانتساب إلى الأم.

سوابق البحث:

هناك كتب مهمة فى مجال معرفة المجتمعات البدائية ونظامها الطومى ومن جملتها يمكن الإشارة إلى "تاريخ الأديان" لمؤلفه "جان ناوس" كما أنّ هناك كتاباً آخر تحت العنوان نفسه للمؤلف "هاشم رضى". كما ألف جيمز جورج فريز كتاباً تحت عنوان الطومية والزواج مع غير الأقارب وكذلك هناك كتاب علم نفس الشعوب لمؤلفه فونت، ولاننسى أن نذكر كتاب الطوم والطابو لزيغموندفرويد. غير أنّ الباحثة لم تعثر على كتاب أو مقال فيما يتعلق بموضوع حكاية هنبوى فى مرزبان نامه و معرفة البنى التحتية الاجتماعية المرتبطة بها.

"هنبوى وقضية الاختيار"

لقد أثارت حكاية هنبوى الواردة فى كتاب مرزبان نامه الكثير من المشاعر المتناقضة لدى كأمراة حيث إننى لم أتمكن من فهم السبب الذى دفعها لمثل هذا التصرف الغريب. وكان الظن الغالب لدى أنّ بنية القصة غير مستمدة من الواقع فهل هناك امرأة تستطيع أن تختار أباها عندما تخير بينه وبين زوجها؟ ثم أين غريزة الأمومة عندما تختار الأم أباها وتهمل ابناها؟ لا شكّ فى أنّ الأم تفكر فى مثل هذه الحالات بابنها دون غيره ولا تفكر بتاتاً بأنّها تستطيع إنجاب أولاد آخرين فى المستقبل. إنّ حبّ الأولاد ضارب بجذوره فى أعماق وجود الأم حيث لا تستطيع إطلاقاً فى أن تفكر بهذه الطريقة. هل إنّ الأدلة التى تستند إليها هذه المرأة فى تفضيل أخيها على زوجها وابنها تنسجم مع روح المرأة وعواطفها؟ فهل يمكن للمرأة الأم فى هذا الموقف أن تفكر فى الاستدلال واللجوء إلى المنطق؟

إنّ هنبوى امرأة كانت تعيش فى عصر الضحاك وتقع القرعة فى يوم من الأيام على أخيها وزوجها وابنها للموت لإطعام الحيتين الموجودتين على كتفى الضحاك. تبالغ هنبوى فى البكاء والصراخ متسائلة ما الذى يجعل ثلاثة أشخاص من أسرتها ضحية

فى يوم واحد بهذا الشكل الفظيخ ويرضى الضحاك أخيراً بأن تختار واحداً من هؤلاء الثلاثة لكى يبقى على قيد الحياة فتختار هنبوى أهاها دون زوجها وابنها.

أما القصة كما وردت فى كتاب مرزبان نامه فهى كالتالى:

«... فى عهد الضحاك الذى نبتت على كنفه حيتان حيث كان فى كل يوم يذبح شاب يافع لإطعام الحيتين من دماغه، كانت هناك امرأة تدعى هنبوى ومن سوء القضاء وقعت القرعة فى يوم من الأيام على ابنها وزوجها وأخيها. حيث ألقى القبض عليهم جميعاً ليمارس ذلك الظلم المعروف عليهم ذهبت المرأة إلى قصر الضحاك وهى تتظلم باكية متوسلة وكانت تتوح بألم متسائلة إذا كان فى كل يوم يتم اختيار شخص واحد من كل بيت فلماذا ألقى القبض على ثلاثة من الرجال من بيتى. لقد بلغ صراخها ايوان الضحاك حيث سمعها فسأل عن حالها. فأخبر بالأمر فأمر أن تختير بين هؤلاء الثلاثة حتى يطلق سراح من تختاره هى. ثم أخذوا هنبوى إلى بوابة السجن فوقع نظرها على زوجها فتحرك الحب فى وجودها كما أنها تذكرت زواجها فأرادت اختياره فوقع بصرها على ابنها فكادت أن تخرج كبدها من أحشائها لتلقى بوجودها أمام محالب نسور البلاء لكى تنقذ ابنها ولكن بصرها وقع على أخيها أسيراً فى القيد نفسه فطأطأت برأسها وجرت الدماء من عيونها بدل الدموع ففكرت فى نفسها فقالت إننى تورطت الآن فى ورطة الحيرة ولا أدرى من أختاره من الثلاثة أأختار نور العين أو قرار القلب أو زينة الحياة؟ وكيف لى أن أهدئ هذا القلب المضطرب ولكن ماذا أفعل إذ لا أستطيع أن أقطع صلة الأخوة ولا يرضى به قلبى. أنى للإنسان أن يختار بديلاً لمن لا بديل له. إننى امرأة شابة بإمكانى أن أتزوج مرة أخرى وقد أستطيع أن أنجب منه ولداً أطفئ به هيب الفراق بقليل من ماء الوصال. وأداوى سم فقدانه بترياق بقاء المولود الجديد. ولكن لا يمكننى إطلاقاً أن أرزق بأخ جديد من والدين أدركهما الموت حتى أتمكن من أن أحبه وأعيش فى كنف حبه. فاضطرت فى نهاية المطاف أن تصرف النظر عن الابن والزوج فأخذت بيد أخيها وخرجت معه من السجن وعندما بلغ الخبر الضحاك أمر بإطلاق سراح الابن والزوج ووهبهما لها.» (وراوينى، ٢٠٠٦م: ٥٢-٥١)

إن قرار هنبوى القاضى باختيار الأخ يبدو أمراً غريباً كما أن الأدلة التى تذكرها

لتبرير موقفها تبدو منطقية حسب المنطق الرياضى ولكنها غير مفهومة من المنطلق العاطفى بل إنها تبدو قراراً آلياً غير إنسانى.

غير أن قليلاً من التأمل يدفعنا إلى الاعتقاد بأن هذه النظرة وليدة فهم الإنسان المعاصر عن المجتمع وعن مؤسسة الأسرة بالمعنى الذى يفهمه اليوم و لكن حكاية هنبوى لا تحكى قصة الحياة المعاصرة إطلاقاً.

عندما نواجه بعض التعقيد فى القصة وعندما نرى أن هناك مشكلة فى فهم تصرفات هنبوى فإن مرد ذلك جميعاً إلى عدم اطلاعنا على هندسة البنية الاجتماعية ومؤسسة الأسرة فى الأزمان الغابرة. إن منطق هنبوى منطق الإنسان البدائى لا الإنسان المعاصر إنه منطق أناس كانوا يعيشون على أساس مجتمع خاضع لسلطة الأم والانتساب إليها فى نظام الزواج من خارج الأسرة. فبالنظر إلى اختلاف نسبة أهمية القرابة فى مؤسسة كهذه فإن من الطبيعى أن يكون اختيارها غير متناسب مع اختيار الإنسان فى هذا العصر.

النظام الأمومى أو نظام الانتساب إلى الأم والزواج خارج الأسرة

إن النظام الأمومى يعنى أن تحديد الأصل والنسب يتم من خلال الأم كما أن موضوع الزواج خارج الأسرة يعنى أن اختيار الزوج يتم من جماعة غير الجماعة التى تنتمى إليها المرأة. «إن النظام الاجتماعى الذى يتم فيه الانتساب وتحديد الأصل عبر الأم ويتم نقل الملكية الشخصية بواسطتها أيضاً يطلق عليه النظام الأمومى أو نظام الانتساب إلى الأم بينما يطلق على النظام الذى يتم فيه الانتساب وتحديد الأصل ونقل الملكية عبر الأب النظام الآبوى أو نظام الانتساب إلى الأب.» (فريزر، ٢٠٠٨م: ٤٣٨)

إن من ميزات هذه المجتمعات «أن الأب لا يرتبط إلى أولاده فى النسب وهم ينتسبون إلى عائلة الأم وقبيلتها وإن ما يكسبه الأب من الأموال ينتقل إلى عائلته من الأم فهو لا يعيش فى بيت زوجته ولا يأكل فيه شيئاً... إن هؤلاء الناس "فى بعض القبائل" ينقسمون إلى عائلات و قبائل تختار الأزواج من خارجها وينتسب الفرد فيها إلى الأم ففى هذه الأنظمة تجرى العادة على أن لا يرث أولاد الرجل منه شيئاً إذ يرث منه أيضاً أبناء الأخت والحالة.» (المصدر نفسه: ٤٣٨)

إنَّ النظامَ الأموميَّ حصيلةُ الفترة البدائية للمجتمعات البشرية وهو يعود إلى الفترة التي كان الناس البدائيون فيها غيرَ مطلعين على دور الرجل في إنجاب الطفل وكانوا ينسبون الحمل في المرأة إلى حلول أرواح الأجداد في وجودها أو ما شابه ذلك. «لذا فإنَّ أبسط أشكال الأسرة كان عبارة عن المرأة التي تعيش داخل قبيلتها مع أولادها وأمها وأخيها إنَّ هذا الشكل الذي عرفت به الأسرة كان نتيجة طبيعية للعلاقات الحيوانية القائمة بين المرأة وأولادها وجهلها لأهمية دور الرجل في عملية التناسل.» (دوراست ٢٠١٢م: ٤١/١) «وحتى بعد أن عرف الناس أهمية دور الرجل الجنسي في عملية التكاثر والتناسل فإنَّ العلاقات الجنسية كانت تعاني من فوضى عارمة لا تحكمها قواعد بحيث لم يكن ممكناً انتساب المولود إلى رجل معين لذلك فإنَّ المرأة لم تكن تبذل جهداً كبيراً في المجتمعات البدائية لمعرفة والد المولود الذي كانت تلده إلاَّ في حالات نادرة.» (المصدر نفسه: ٤٠/١) إنَّ الأمر الملفت للنظر هو أنَّ المرأة أو الأم لم تكن هي المسيطرة أو الرئيسة على الأسرة أو المجتمع. «إنَّ النظام الأمومي لا يعني أنَّ الأم هي الملك أو الحاكم. بل على العكس من ذلك فإنَّ الاعتقاد بالنظام الأمومي كان أكثر رواجاً بين القبائل البدائية الوحشية ففي مثل هذه المجتمعات لم تكن المرأة مسيطرة على الرجل إطلاقاً بل كانت بمثابة خادمة أو عاملة عند الرجل وكانت في منزلتها الاجتماعية أكثر من العبيد قليلاً وفي واقع الأمر فإنَّ هذا النظام كان بعيداً كل البعد عن تفضيل المرأة اجتماعياً بحيث يمكن أن نقول بأنَّ هذا النظام هو نتيجة إذلال المرأة المبالغ فيه فهو وليد مجتمع كانت تعاني فيه علاقات الرجل والمرأة فوضى ولا تحكمها قاعدة واضحة لذا فإنَّ إمكانية تحديد والد للأطفال لم تكن متاحة أصلاً.» (فريرز، ٢٠٠٨م: ٤٤٠)

«إنَّ أهمية المرأة في مثل هذه المجتمعات كانت تأتي من كون المرأة أمّاً لتحديد موضوع القرابة والأصل والنسب، ويجب ألاَّ يتم الخلط بين "حق الأمومة" وبين سلطة الأم ونظام حكم الأم. وحتى عندما كان الإرث ينتقل عبر الأم فإنَّ المرأة لم تكن صاحبة السلطة المطلقة في أموالها بل إنَّ دورها كان ينحصر في تسهيل عملية تحديد العلاقات الأسرية. فلولا ذلك لكانت أمارات العلاقة الأسرية تزول نهائياً بسبب

إهمال الناس في تحديد علاقاتهم الجنسية.» (دورانت، ٢٠١٢م: ٤١/١). لقد كان رئيس الأسرة أو الحاكم على المجتمع في مثل هذا المجتمع هو شقيق الزوجة أو خال الأطفال فهو كان يتمتع بجميع الحقوق التي يتمتع بها الأب في أسرة خاضعة لسلطة الأب، لذا فإنه كان يعتبر أهم شخص في الأسرة ففي المجتمعات ذات النظام الأمومي كان «الحق الاجتماعي والسيطرة والسيادة في الغالب للخال أو أحد أقرباء المرأة وإذا انظرنا إلى هذه الأسر من وجهة نظر عامة فإن الزوج يعتبر فرداً أجنبياً ويتمتع الخال أو أحد أقرباء المرأة بجميع الحقوق والامتيازات التي يتمتع بها الأب في الأنظمة الخاضعة لسلطة الرجل. فالأب لا يتمتع بأي حق إزاء الأم أو بمفهوم أوسع فإن الزوج لم يكن له أي حق في زوجته.» (رضي، ١٩٦٥م: ٥٤/٤). إن أخا الزوجة يعتبر ولياً لأولاد المرأة حتى ليتخيل المرء أن أولاد الأخت أولاده في الواقع. «لقد كانت علاقة الخال بأولاد أخته بمثابة علاقة الأب بأولاده غير أنها كانت ذات طابع رسمي وعلاقة جافة باردة ولم يكن للعطف والحنان أي مكان في هذه العلاقات. فعندما كان يبلغ الطفل سن التدريب كان الخال يتولى أمره ويراقب جميع أعماله. لقد كانت التربية والتعليم والتدريب من واجبات الخال وكان ينفذها بكل دقة وتشديد ففي بداية التدريب كان العمل مبنياً على تدريب الولد على مبادئ المراسم والإجراءات الرسمية المرتبطة بعلاقات الفرد مع أقربائه ... وكان ذلك في نهاية المطاف أهم المواد التعليمية لأي صبي.» (المصدر نفسه: ٥٥/٤)

لذا فإننا نلاحظ بأن وجود الأخ كرئيس للأسرة لم يكن ذا أهمية للأخت فحسب بل كان ضرورياً لرعاية الأطفال ضرورة حيوية. فهو بالإضافة إلى دوره كأخ كان يلعب دوراً أساسياً في تربية الأطفال.

يعتقد فرويد: «أن الزواج الجماعي كان أمراً اعتيادياً قبل إقرار الزواج مع شخص واحد وقد ترك ذلك بصماته على اللغة والتقاليد والعادات.» (فرويد، ١٩٧٣م: ١٤) ويلاحظ المرء أن الأهمية التي كان يحظى بها الخال كرئيس للأسرة ذات النظام الأمومي قد تركت آثاراً في اللغة الفارسية وآدابها. فمن ذلك حضور شقيق تهمينه في قصة رستم وسهراب وكذلك قصة هنبوى السابقة الذكر كما أن هناك مثلاً سائراً يقول

"الابن الحلال يشبه الحلال" ويبدو أن ذلك يأتي من دور الحلال في الأسرة المبنية على النظام الأمومي ودوره الفاعل في تربية أبناء الأخت ويبدو كذلك أن مصدر مثل هذه الأمثال هو نظام الأسرة في العهود البدائية السحيقة.

بعد تبين بنية المجتمع ذى النظام الأمومي الذى كان الأخ والحلال فيه يتمتعان بالدور الرئيس في الأسرة فإن المنطق الذى دفع هنبوى إلى ذلك الاختيار يبدو واضحاً فهي تختار من يلعب الدور الأساس في الأسرة غير أن اختياره هذا مازال مخالفاً للعاطفة الإنسانية خاصة وإنها تظهر ميلاً عاطفياً مبالغاً فيه قائلة «... ولكن ماذا أفعل إذ لا أستطيع أن أقطع صلة الأخوة ولا يرضى به قلبى» (وراوينى، ٢٠٠٦م: ٥٢) إذ يبدو أن تدبيرها في اختيار الأخ يتم بتوجيه من عاطفتها. فالسؤال الملح الذى يطرح نفسه هنا هو إذا كانت هنبوى قد تخلت عن زوجها فكيف استطاعت أن تتخلى عن عاطفة الأمومة أيضاً؟!

الزواج من غير الحب

يبدو أن الزواج من خارج نظام الأسرة في الأسر ذات النظام الأمومي لم يكن منسجماً مع الحب ولم تكن علاقة الحب بين الرجل والمرأة تلعب أى دور في هذا الزواج «إن أساس الزواج البدائي لم يكن مبنياً على حب سابق أو علاقات غرامية بل كان للزواج واختيار الزوج بعد اقتصادى يسعى إلى النفع والاستفادة.» (رضى، ١٩٦٥م: ٥٦/٤)

«إن المنتبع لا يجد أى أثر للحب الرومانسى فى جميع حالات الزواج فى المجتمعات البدائية ... إن اختيار الأقسام البدائية للزوجة كان يتم دون أى حماس وكأن ذلك كان يساوى عندهم كطف سنبله قمح ... إن الحب الذى تظهر فيه الحبيبة فى قمة الفضائل والذى ينجم منه الحب الرومانسى ليس إلا ثمرة للمدينة المتطورة التى يرى فيها الإنسان موانع كثيرة أمام إرضاء شهواته الإنسانية وهذه الموانع هى القوانين الأخلاقية كما أن كثرة المال تدفع بعض الرجال والنساء إلى حب الكماليات ومنها التدقيق فى قضايا الحب الرومانسى. لقد كانت الأمم البدائية أفقر من أن تتمكن من إدراك الحب لذا فإننا

قلّما نجد في أغانيها الأشعار الغرامية. فعندما أراد المبشرون المسيحيون ترجمة الكتاب المقدس إلى لغة قبيلة "الغانكين" لم يجدوا في لغتها كلمة تعادل "الحب" ... وبصورة عامة ينظر الإنسان البدائي إلى موضوع الزواج من منطلق فلسفى خاص لا تختلف فيه نظرتة من الجانب الميتافيزيى والدينى عن نظرة الحيوان العادى إلى هذا الموضوع. فهو فى رأيه أمر لا يحتاج إلى التفكير بل يشبه الأمر لديه عملية أكل الطعام فهو لا يسير فى عمله هذا وراء تخيلاته ولا يبحث عن المرأة المثالية كما لا يضى على الزواج بعداً مقدساً كما لا يفكر فى الإعداد لمراسم الزواج فالأمر فى حقيقته لا يعدو أن يكون عملية تجارية مرحة ... لم يكن الرجل البدائى لينظر إلى الزواج كوسيلة لتنظيم العلاقات الجنسية لديه بل كان الزواج مبنياً على التعاون الاقتصادى. لذا فإن ما كان يتوقعه الرجل من المرأة لم يكن جماها وظرفها بل كان المطلوب منها النفع والقدرة على العمل وكانت المرأة تقبل هذا الأمر الطبيعى بكل رغبة. «(دورانت، ٢٠١٢م: ١/٥٥) «إذا كان الشعور بالجمال أمراً غير واضح بين الأمم البدائية فإن مردّه إلى أن الإنسان البدائى لم يكن ليجد الفرصة الكافية للتخليق فى أجواء الخيال من اللحظة التى كان يشعر فيها بالحاجة الجنسية وإلى الزمن الذى كان يتمكن فيه من قضاء هذه الحاجة ولم يكن هذا الزمن طويلاً ليضيف هو عليه من خياله شيئاً ويعطيه أبعاداً جمالية. قلّما كان يحدث عند الإنسان البدائى أن يختار الرجل امرأة لما نسميه اليوم الجمال فهو كان يفكر فى الخدمات التى كان بوسع المرأة أن تسديها له فهو لم يكن ليرفض امرأة قوية جسدياً بسبب قبحها.» (المصدر نفسه: ١/١٠١)

ونلاحظ فى قصة هنبوى أنها لا تتمتع بأى جانب جمالى نسائى كما هو متوقع من امرأة لذا فإننا لانجد أى وصف عن جماها أو أنوثتها فى القصة وإن كانت بنية القصة لا تقتضى ذلك فى الأساس.

فهى امرأة تلعب دور الزوجة والأم والأخت فى آن واحد ولكن دورها الأبرز على خلاف المجتمعات المعاصرة يتلخص فى أنها أخت ويبدو أنها قلقة على فقد الأخ أكثر من سائر أعضاء أسرتها. ويبدو أن نسبة الحب تجاه الأقارب كانت تتفاوت فى المجتمعات البدائية من عصرنا الحاضر كما أنها كانت متفاوتة فى نسبة القرابة نفسها

وكانت خاضعة لمدى أهمية الأشخاص في الأسرة. ففي المجتمع ذى النظام الأمومي «لم تكن المرأة تابعة لزوجها بل كانت تابعة للأب أو الأخ في قبيلتها هي وكانت تعيش معهم وكان الذكور الذين يعرفهم أبناؤها هم والد المرأة وإخوتها. كما أن العلاقات القائمة على المحبة كانت موجودة بين الإخوة والأخوات بشكل أقوى من العلاقات الزوجية ومن جانب آخر كان الزوج يعيش مع أمه داخل قبيلته وكان يزور زوجته خلصة. فحتى في العصور المتأخرة ذات المدنيات المتطورة نسبياً نلاحظ أن أهمية الأخ كانت عند المرأة أكبر من أهمية الزوج. إنَّ الفكرة القائلة بأنَّ الزوج هو أقرب الأشخاص من زوجته وأعزهم لديها فكرة جديدة يوجد لها مصداق خارجي عند قليل من البشر فقط.» (المصدر نفسه: ٤٠/١) ويبدو أننا نستطيع فهم الأسباب التي كانت تدفع إلى تفضيل الأخ على الزوج بمعرفة نظام المجتمع الأمومي سواء من الجانب المنطقي أو من الناحية العاطفية إذ إنَّ الزوج لم يكن ذا أهمية كبيرة في المجتمعات البدائية وكان الدور الأساس فيها على عاتق الأخ ويبدو أن الإنسان البدائي لم يكن يفكر في الحب عند الزواج ولم يكن للزواج أي صبغة عاطفية وكان هذا الجانب العاطفي يتجلى بين الإخوة والأخوات حيث نجد بعض ملامحها في الأساطير والنصوص الأدبية التي وصلتنا فعلى سبيل المثال نلاحظ أن "آنتيغون" تضحي بحياتها من أجل أخيها كما أن مؤلف مرزبان نامه يتحدث عن علاقة الأخوة ويصفها «بأنها لا يمكن أن يجد الإنسان عنها بديلاً ببذل العالي والنفيس.» (وراويني، ٢٠٠٦م: ٥٠)

إننا نواجه في قضية عدم تفضيل الابن على غيره تحدياً كبيراً ولا يمكننا في نهاية المطاف الوصول إلى نتيجة قاطعة فهناك أمارات تدل على أن الأولاد لم يكونوا على درجة كبيرة من الأهمية العاطفية التي يحظون بها اليوم. ويمكننا أن نستخرج هذه الأمارات عبر معرفة حقيقة "الزواج الجمالي أو الاشتراكي" والعلاقات الطوطمية الموجودة في المؤسسات ذات النظام الأمومي.

«إنَّ المراد من العرس الجماعي أو الزواج الجماعي هو أن مجموعة من الرجال كانوا يتزوجون مع مجموعة متساوية من حيث العدد من النساء زواجاً مشتركاً فعلى سبيل المثال كان عشرون رجلاً يتزوجون مع عشرين امرأة وبذلك كان كل واحد من هؤلاء

الرجال زوجاً لجميع هؤلاء النسوة كما كانت كل واحدة من هؤلاء النساء زوجة لجميع هؤلاء الرجال وكان جميع الرجال آباء لجميع الأولاد كما كان جميع النساء أمهات لجميع الأولاد أيضاً.» (رضى، ١٩٦٥م: ٢٣٠/٤) «فى المجتمعات الطوطمية كان مفهوم القرابة يجد معنى جماعياً. فكل فرد لا ينادى من كان سبب وجوده فى هذا العالم أبا فحسب بل كان يدعو جميع رجال القبيلة الذين كان يحق لهم الزواج بأمه أبا كما كان يدعو أمّا جميع النساء اللاتى كان بإمكانهن أن يكنّ أما له. لذا فإنّ عنوان القرابة كان لا ينطبق على القرابة الناتجة من الدم كما هو الحال عندنا اليوم. فتلك العناوين كانت تدل فى الغالب على العلاقات الاجتماعية أكثر من دلالتها على العلاقات الجسدية.» (فرويد، ١٩٧٣م: ١٣)

والسؤال هنا هل إنّ مفهوم الأمومة والبنوة فى حكاية هنبوى يضرب بجذوره فى مفهوم القرابة "الاشتراكية" أو القرابة الطوطمية؟ «إنّ التعلق بالطوتم ... يتجاوز من ناحية مفهوم التعلق بالقبيلة ومن ناحية أخرى يقلل من أهمية عنصر الدم فى القرابة.» (المصدر نفسه: ٧)

«إنّ العلاقات الطوطمية أقوى من العلاقات الأسرية فهذه العلاقات لا تنطبق على بعضها بعض كما نتصور.» (المصدر نفسه: ١٤٤-١٤٣) فهل يمكن بناء على ذلك أن نستنبط أنّ مفهوم الأمومة والبنوة كان يختلف عما هو عليه اليوم. أو كانت هذه العلاقة أضعف مما هى عليه اليوم؟ يعتقد فرويد أنّ المراعاة الشديدة للمقدسات كانت تدفع أفراد أسرة الطوتم المشترك إلى الابتعاد عن بعضهم البعض مما كان يؤدى إلى ضعف العلاقات بينهم.

فقد ذكر فرويد أمثلة عديدة تدل على الخوف المبالغ فيه من هذه العلاقة بين أفراد معتقدين بطوتم مشترك ويبين أنّ هؤلاء كانوا يراعون قوانين صارمة فى علاقاتهم فمنها منع الحديث ومنع النظر ومنع الحياة المشتركة و ... يقول فرويد: «فى مثل هذه الأسر لا يتناول الأفراد الطعام فى مكان واحد فالبدو يأكلون منفردين حتى اليوم إنّ الموانع المذهبية الطوطمية حول الأطعمة تمنعهم فى الغالب من مؤاكلة آبائهم.» (الطوتم والطابو، لاتا: ١٨٦) أليس عدم الارتباط هذا الذى سبق ذكره بسبب مراعاة المقدسات

بين الوالد وأبنائه يودى إلى ألا يوجد هذا الحب الذى نعرفه اليوم بينهم؟ لا يمكننا البت فى رأى معين فى هذا الصدد فوجود غريزة الأمومة القوية فى الحيوانات يمنعنا من البت فى أمر ضعف عاطفة الأمومة فى العصور البدائية لدى المرأة. غير أننا نستطيع القول بأن عدم قبول تحليل كهذا ربما يدفعنا إلى أن نميل إلى قضية أخرى وهى الإيمان بالمبادئ والمثل العليا. فالإيمان بالهدف أو المبدأ يسهل على الإنسان التضحية بكل شئ فالتاريخ البشرى يشهد أن هناك أمهات ضحين بأبنائهن فى سبيل هدف مهم أو عقيدة مقدسة لربما ليس الأخ هو أحب الأشخاص غير أنه أهم الأشخاص فى مثل هذا النظام ففى بنية المجتمعات البدائية الطوطمية كان الأهم هو الأكثر تقدساً فالحفاظ على أكثر الأشياء تقدسا يعنى أكثر الأشياء أهمية. فمن خلال كلام هنبوى يمكن الوصول إلى هذا المفهوم بالكناية فهى تقول: لو كان عندى أخ فسيكون عندى الزوج والابن أيضاً فمعنى ذلك أن الأخ هو كل شئ ووجوده يعنى وجود الجميع.

هنبوى واختبار البطولة

ليست قصة هنبوى مأساة فالقدر وضعها أمام مفترق طرق ولكنها ليست خاسرة فى جميع الحالات فهى لا تتردد فى الاختيار بين السيئ والأسوأ حتى تضطر إلى اختيار الأسوأ وتدفع الثمن بل على العكس من ذلك تختار اختياراً صحيحاً وفى النهاية تأخذ جزاءها على حسن الاختيار هذا لتنتهى القصة نهاية سعيدة.

ففى الأساطير نجد البطل يضطر إلى اجتياز العقبات الصعبة مثل العقبات السبع لرستم واجتياز عالم الظلام أو الدخول فى طريق الالعودة و... فهى جميعاً اختبار للشجاعة والبطولة غير أن هناك نوعاً آخر من الاختبار هو اختبار الذكاء والتدبير أو اختبار العلم المذهبى. فالبطل يجب أن يخضع للاختبار النفسى أيضاً. فالمواودة قاموا باختبار زال بل اللغز كما قام الوزير بالمناظرة مع ابن الملك فى كتاب "مرزبان نامه". فهناك أبطال خضعوا للاختبار الجسدى والنفسى معاً. تعدّ هنبوى بطلة هذه القصة فهى خضعت لاختبار التدبير أو العلم المذهبى ولكنها خرجت مرفوعة الرأس من هذا الاختبار الصعب لتنال جزاءها فى النهاية فيهبها الضحاك أباها وابنها وزوجها جميعاً فحكاية هنبوى هى أسطورة اختبار للبطولة.

هنبوى تاريخياً

لم ترد قصة هنبوى فى كتاب مرزبان نامه كأسطورة وإمّا وردت فى كتابين تاريخيين آخرين كواقع تاريخى وهما كتاب تاريخ جهانگشاي جوينى «الذى أوردها كحادثة حدثت فى عهد أوكتاي قاآن المغولى كما وردت فى تاريخ هيرودوت كحادثة حدثت فى عهد داريوش الأخمينى. لقد ورد فى تاريخ جهانگشا أن ثلاثة أشخاص أحضروا لكى يعاقبوا على جريمة ارتكبوها فأمر أوكتاي قاآن بقتلهم فعندما أتى من القصر وجد امرأة تصب التراب على رأسها وتصرخ فسأل ما خطبها؟ فقالت أبكى على هؤلاء الثلاثة الذين صدر الأمر بقتلهم فأحدهم أخى والآخر زوجى والثالث ابنى. فقال لها اختارى واحداً من هؤلاء الثلاثة كى أطلق سراحه لأجل قلبك قالت: الزوج يمكن أن أجد عنه بديلاً وكذلك الابن فهو مرجوٌ ولكنَّ الأَخ لا أجد له بديلاً فأمر بأن يهبوها الثلاثة.» (جوينى، ٢٠٠٧م: ١٨٣/١)

غير أن هيرودت يذكر هذه القصة وينسبها إلى إصدار داريوش الأمر بقتل "اينتامنز" وجميع أقاربه ويقول: «إنَّ واحداً من السبعة الذين ثاروا ضد مغ كان يدعى اينتامنز فقتل بعد ارتكاب جريمة مباشرة. دخل يوماً فى قصر الملك وأراد مقابلته وقد كان هذا المبدأ معترفاً به وهو أنَّ من أطاح بمغ يجوز له الذهاب إلى الملك دون إذن مسبق شريطة ألا يكون الملك مع النساء. لذلك فإنَّ اينتامنز كان يستخف بالاستئذان المسبق وأراد مقابلة الملك كواحد من السبعة فمنعه البواب والمناوب الموجودان على بوابة القصر وقالوا له إنَّ الملك مشغول مع النساء غير أنَّ اينتامنز ظنَّهما كاذبين فاستل سيفه وقطع أنفيهما وآذانهما وسلك هذه الأعضاء المقطوعة فى لجام حصانه وعلقه على رقبتيهما وأرسلهما إلى الملك. فذهبا إلى الملك ووضحا له القصة التى جرت لهما مع اينتامنز فخاف داريوش من عمله ظاناً بأنَّه قام بذلك بتنسيق مسبق مع أولئك الستة فأحضرهم وسألهم عن الأمر هل يؤيدونه أم لا فتأكد له أنَّهم لم يكونوا على علم بذلك فأمر بأن يسجن اينتامنز وأولاده وأقاربه جميعاً. إذ كان يظن حسب القرائن بأنَّه يفكر فى ثورة ضده فسجن الجميع على أن يأمر الملك بقتلهم غير أنَّ زوجة اينتامنز كانت تتردد على القصر بشكل مستمر وتبكى بشدة مما جعل قلب داريوش يرق على حالها

فأرسل إليها أن داريوش شاه يسمح لك باختيار أحد هؤلاء المساجين ويهبك حياته فأجابت المرأة بعد تفكير: إذا كان الملك يسمح باختيار شخص واحد فقط من بين جميع الأقارب فإنني أختار أخي فعندما اطلع داريوش على هذا الأمر تعجب فأرسل إليها أيتها المرأة يسألك الملك ما الذى جعلك تتخلين عن زوجك وهو أعز الناس عندك وعن أبنائك وهم أقرب الناس منك وفضلت أخاك عليهم فأجابت: أيها الملك لاشك في أنني لو خسرت زوجي وأولادى أستطيع أن أتزوج بعدهم بإذن الله ليكون عندى زوج وأولاد آخرون ولكن والدي قد توفيا فلا يمكن أن يكون لى أخ بعد هذا الأخ فهذا التدبير جعلنى أعرض هذا الطلب إليك.» (هيرودوت، ١٩٦١م: ٢١٣-٢١٢) إن صحة القصة الواردة فى كتاب تاريخ جهانگشای جوينى الذى ألف بعد خمسين عاماً من تأليف كتاب مرزبان نامه أمر مشكوك فيه خاصة مع وجود قصة مماثلة لها فى تاريخ هيرودوت غير أن صحة قصة هيرودوت تحتاج إلى التمهيص فى التاريخ. ولكننا إذا اعتمدنا على أصل هذه القصة التاريخية وربطنا أصول قصة هنبوى إلى العصر الأخمينى فإن ذلك لا يعنى أن النظام الأمومى كان سائداً فى ذلك العصر وإنما يدل على أن حب الأخ الضارب بمجذوره فى الحياة البدائية للبشر كان ما يزال محفوراً فى ذاكرة الإنسان فى ذلك العصر وكان كقيمة ثقافية أو كعادة اجتماعية مازال مترسخاً فى الأذهان. وقد أشرنا فيما مضى إلى كلام ويل دورانت حيث قال: إن المرأة كانت تكرم أباها أكثر من زوجها حتى فى المدنيات المتطورة القديمة.

إن تغيير أسلوب الحياة طوال التاريخ يترك بعض الأساليب القديمة تعمل كقيمة أخلاقية أو مخالفة للأخلاق والثقافة غير أن أسبابها تظل مبهمه غامضة عند الناس. وهى تتجلى فى سلوك الناس كطقوس أو تقاليد أو تنعكس فى القصص وتنتقل بين الناس.

ولكننا إذا رفضنا هذه الحادثة تاريخياً كما رفضها أمثال زرينكوب وپيرنيا فإن ذلك سيدفعنا إلى الاعتقاد بأن قصة هنبوى تعود إلى عصور تاريخية مبهمه إذ تحولت إلى حكاية رمزية انتقلت إلينا عبر الصدور وظهرت فى كتب مختلفة فى عهود متفاوتة فهى تتمثل فى قصة هنبوى فى عهد الضحاك ومرة أخرى نراها تظهر فى قصة اينتامزن فى العهد الأخمينى ومرة ثالثة نراها فى شخصية امرأة مجهولة فى عهد الحكم المغولى.

إنَّ شخصية الضحاك في قصة هنبوى ليست منسجمة مع الصورة المرسومة عنه في ذهن القارئ. إنَّ حاكماً يصبح عادلاً بسبب سماع صوت بكاء امرأة ويهبها الثلاثة لا يمكن أن يكون الضحاك المعروف لكنَّه ملك من أولئك الملوك الكثيرين في التاريخ الذين يلقبون بالكي الرقاب فهم يصدرون الأمر بالقتل ولكنَّ سماع جملة حكمية رائعة يدفعهم إلى العفو عن الشخص إنَّ مثل هذا الملك نراه في الكتب الأخرى من مثل كلستان لسعدى الشيرازى إنَّ سبب تسمية هذا الملك بالضحاك في هذه القصة محاولة لتبرير إصدار الأمر بقتل ثلاثة أشخاص من أقارب هنبوى إذ إنَّ مثل هذا السلوك يناسب الملوك التاريخيين المعروفين أكثر مما يناسب الملوك الأسطوريين مثل الضحاك. إنَّ ملكاً ينتسب إلى أسرة خاضعة لنظام سلطة الأب يتعجب من اختيار امرأة تنتمي إلى النظام الأموى وتهب لها ابنها وزوجها. وبالنظر إلى وجود نظام الانتساب إلى الأب عند الآريين فإنَّ من الممكن القول إنَّ قصة هنبوى تنتمي جغرافياً إلى تلك البلاد الخاضعة لسيطرة الإيرانيين أو تلك المجاورة لبلاد فارس. إنَّ قصة هنبوى تعتبر الحد الفاصل بين الواقع والأسطورة إنَّها عقدة ظهرت بسبب وجود فهمين مختلفين عن فكرة واحدة وذلك بسبب وجود نوعين من الحياة بين الملك والعبيد. إنَّها قصة تعكس مسار تطور الإنسان من النظام الأموى إلى نظام الانتساب إلى الأب وهى انعكاس للتحدى الكبير الناجم عن التفاوت بين مستويات القرابة الأسرية فى نظامين اجتماعيين مختلفين.

النتيجة

نواجه فى هذه الحكاية امرأة تعتبر بطلة فيها وقعت فى ورطة ستخسر فيها ابنها وزوجها وأخاها إنَّ هؤلاء الثلاثة جميعاً رجال وعلى المرأة أن تختار واحداً منهم فهى تختار أخاها فى نهاية المطاف وبهذا الاختيار تتمكن من إنقاذ الثلاثة. إنَّ هذه الحكاية ضاربة بجذورها فى النظام الأموى ففى هذا النظام يعدّ الأخ أهمّ أفراد الأسرة إنَّ كل نوع من الحب والإيثار فى هذا النظام راجع إلى مدى أهمية الفرد فى ذلك النظام. تضحى المرأة بزوجها إذ إنَّ مفهوم الحب لم يكن رائجاً فى المجتمعات

البدائية القديمة وليس للرجل دور كبير في نظام الزواج خارج الأسرة. ثم تضحى المرأة بابنها إذ يبدو أن عاطفة الأمومة كانت أضعف من العلاقة بين الأخ والأخت في المجتمعات البدائية ولربما كان على كل فرد أن يضحى بالغالى والنفيس فى سبيل الحفاظ على الأهم. ففى مثل هذه الحالة فإن التضحية بالولد للحفاظ على حياة الأخ تعادل اليوم مفاهيم من مثل الإيثار والاستشهاد وحفظ الوطن وحفظ الدين وحفظ الحرية وهى تكمن فى الصراع بين نظامين اجتماعيين مختلفين هما النظام الأمومى "نظام العبيد" مقابل النظام الأبوى "نظام الملك" ويبدو أن كاتب الحكاية وقع فى المشكلة نفسها بسبب فكرته المبنية على النظام الأبوى. إن وصف تدفق الأحاسيس والعواطف عند هنبوى تجاه زوجها وابنها يعود إلى مقدرة الأديب مما يعزز جانب التأثير فى النص ويوخر الوصول إلى نقطة الذروة والعقدة فى القصة. إن هذه الأوصاف نتاج قلم أديب يعيش فى مجتمع متحضر وإن فهمه عبارة عن فهم متطور غير بدائى لذا فإنه لا يستطيع القبول باللامبالاة تجاه الزوج والأولاد. إن نظرتها على الأشخاص الثلاثة فى السجن تعبر عن أحاسيسها بشكل درامى مؤثر. وتصف حالة الحزن التى تمرّ بها الأم تجاه ابنها حيث يقوم الكاتب بتصويرها بشكل أقوى من بقية الحالات. غير أنه فى وصف أحاسيس المرأة تجاه زوجها يلجأ إلى صور أقل تأثيراً من أحاسيسها تجاه الابن. غير أن ما يحدث تجاه الأخ يفاجئ المخاطب الذى يعرف نمطاً اجتماعياً مقبولاً فى أى مجتمع مدنى و تتجلى صورة الأخ فجأة وتبرز أكثر فأكثر إن الوصف الدقيق يتم فى نهاية القصة وإن هذه الإثارة تزيد من جاذبية القصة. إن البنية القصصية تدل على أن هنبوى تسير فى اختيارها من مسار الحركة من الاحساس نحو العقل. وإن عقدة القصة تكمن فى التضاد بين ماهية العواطف النسائية والعقل عند بطلة القصة. غير أن نظرة منا على المضمون تجعلنا فى مواجهة قصة تضرب بجذورها فى مؤسسة اجتماعية قديمة تعود إلى الإنسان البدائى.

حيث أخذت فى مسار انتقالها الشفهى من العهود البدائية إلى العهود المتطورة تصطبغ بصبغة المدنية وإن هذا الامتزاج بين الماضى والحاضر أضفى على القصة تعقيداً قصصياً ومنحها هذه الجاذبية. وقد تجلت هذه العقدة على شكل الرمز فى قالب تقليد

أسطوري يدعى تقليد اختبار البطولة للبطلة التي تنتمي إلى النظام الأمومي. وخرجت البطلة المنتمية إلى النظام الأمومي مرفوعة الرأس لتنقذ بذلك جميع أقاربها مجيبة بذلك على السؤال المهم المتعلق باختبار التدبير والعلم المذهبي لديها فهي تعلم ما هو المهم و ماهي طريق الخلاص وتعلم أن الإجابة على ذلك هي أن المهم هو اختيار الأخ وهو طريق خلاص الجميع.

المصادر والمراجع

- جويني، محمد. (١٣٨٥ش). تاريخ جهانگشای جويني. تصحيح: محمد قزويني. ج ١٤. تهران: دنيای كتاب.
- دورانت، ويل. (١٣٩١ش). تاريخ تمدن. ترجمه: احمد آرام، ع. پاشايي، اميرحسين آريانيپور. ج ١٥. تهران: علمي و فرهنگي.
- رضي، هاشم. (١٣٤٣ش). تاريخ اديان. ج ١. تهران: كاوه.
- فرويد، زيگموند. (١٣٥١ش). توتم و تابو. ترجمه محمد علي خنجي. ج ٢. تهران: كتابخانه طهوري.
- فريزر، جيمز جورج. (١٣٨٦ش). شاخه زرین. ويرایش و مقدمه رابرت فريزر. ج ٣. ترجمه كاظم فيروزمند. تهران: آگاه.
- مصاحب، غلامحسين. (١٣٨١ش). دايره المعارف فارسي. ج ٣. تهران: اميركبير.
- وراويني، سعد الدين. (١٣٨٤ش). مرزبان نامه. به كوشش خليل خطيب رهبر. ج ١١. تهران: صفی عليشاه.
- هرودوت. (١٣٣٩ش). تاريخ هرودوت. ترجمه و حواشي هادي هدايتي. ج ١. تهران: دانشگاه تهران.